إنسانية الإمام الحسين عليه السلام

بقلم
السيد علي محمد تقي البعاج

مؤسسة المنبر الحسيني

إنسانية الإمام الحسين عليه السلام

بقلم
السيد علي محمد تقي البعاج

إصدار
مؤسسة المنبر الحسيني

إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام)
رحمةٌ تتجاوز حدود الخصومة

مقدمة

عندما نتحدث عن الإمام الحسين (عليه السلام) فإننا لا نتحدث عن شخصية تاريخية خاضت معركة وانتهت باستشهادها وإنما نتحدث عن مدرسة إنسانية متكاملة تجسّدت فيها أسمى معاني الرحمة والعطف والكرامة والإحسان واحترام الإنسان.

إن عظمة الإمام الحسين (عليه السلام) لا تكمن فقط في شجاعته وإبائه وتضحياته وإنما تكمن أيضاً في إنسانيته التي لم تتغير أمام قسوة الظروف ولم تتبدل أمام شدة المحن ولم تسقط حتى في أحلك ساعات حياته.

والسؤال الذي يستحق التأمل هو كيف استطاع الإمام الحسين (عليه السلام) وهو يعيش أصعب لحظات حياته أن يحافظ على إنسانيته ورحمته حتى مع الذين وقفوا في مواجهته؟

إن هذا السؤال يكشف لنا عن بُعد عظيم من أبعاد شخصية الإمام الحسين (عليه السلام).

أولاً
إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) لا تعرف حدود الخصومة

من أعظم الشواهد على إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) موقفه مع الحر بن يزيد الرياحي.
فالحر هو الذي اعترض طريق الإمام الحسين (عليه السلام) ومنعه من مواصلة مسيره ووضعه أمام واقع صعب

ومع ذلك لم يتعامل معه الإمام الحسين (عليه السلام) بروح الانتقام أو الحقد.

بل عندما رأى الحر وأصحابه وقد اشتد بهم العطش أمر أصحابه بسقيهم وسقي خيولهم.

تأملوا هذا الموقف!

الإنسان الذي يمنعك من الوصول إلى هدفك ويقف في طريقك ويشكل خطراً عليك عندما تراه عطشاناً لا تفكر في معاقبته وإنما تفكر في إنقاذه من العطش.

هذه هي الإنسانية الحسينية

إن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يجعل اختلاف الموقف سبباً لسلب الإنسان حقه في الرحمة والإحسان.

فالإنسان الذي يحمل القيم الحقيقية لا يسمح لخصومته مع الآخرين أن تلغي إنسانيته تجاههم.

ثانياً
إنسانيته حتى مع أعدائه

من المواقف العظيمة التي تكشف عن إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) موقفه من الماء في كربلاء.

فمع أن جيش ابن زياد منع الماء عن الإمام وأهل بيته وأطفاله (عليهم السلام) فإن الإمام لم يتخلّ عن أخلاقه الإنسانية و لم تتحول مبادئه إلى سلوك انتقامي.

وهنا تظهر حقيقة مهمة:

إن الإنسان قد يتعرض للظلم ولكن ليس من الضروري أن يتحول إلى ظالم وقد يتعرض للقسوة ولكن ليس من الضروري أن يصبح قاسياً.

لقد أراد الإمام الحسين (عليه السلام) أن يعلمنا أن الأخلاق ليست مرتبطة بطريقة تعامل الآخرين معنا وإنما هي انعكاس لحقيقة ما نحمله من قيم ومبادئ.

فقد تكون رحيماً لأن الآخرين رحماء بك وهذه رحمة سهلة ولكن القيمة الحقيقية أن تحتفظ برحمتك حتى عندما تواجه القسوة.

ثالثاً

إنسانيته (عليه السلام) تجاه الضعفاء والأطفال

إن من أبرز مظاهر إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) اهتمامه بالضعفاء ولا سيما الأطفال والنساء.

فالإمام الذي وقف في وجه الظلم لم يكن يبحث عن مجد شخصي ولم تكن قضيته قضية سلطة أو امتياز وإنما كان يحمل همّ الإنسان وكرامته ومستقبله.

ومن هنا نفهم لماذا كانت الأسرة والأطفال حاضرين في وجدانه حتى في أصعب الظروف.

إن اهتمام الإمام (عليه السلام) بأهل بيته وحرصه على النساء والأطفال يكشف عن جانب عظيم من شخصيته؛ فهو لم يكن قائداً منفصلاً عن آلام من حوله بل كان يعيش آلامهم ويشعر بمعاناتهم.

وهذا يعطينا درساً مهماً:

إن عظمة الإنسان لا تقاس فقط بمواقفه الكبيرة أمام الجماهير وإنما تقاس أيضاً بطريقة تعامله مع الضعفاء

الذين لا يملكون قوة ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعاً
إنسانيته في تعامله مع المخالفين

إن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن يريد هداية الناس من خلال إذلالهم و لم يكن يسعى إلى الانتصار على الآخرين من خلال تحطيم كرامتهم.
بل كان يخاطب الناس بالحجة والموعظة ويكشف لهم حقيقة الطريق الذي يسيرون فيه.

لقد كان بإمكانه أن يتعامل مع المخالفين بمنطق القوة وحدها لكنه كان يريد أن يمنحهم فرصة للعودة إلى الحق.

وهذا يكشف عن عمق إنسانيته؛ لأنه لم يكن ينظر إلى الإنسان المخالف باعتباره عدواً يجب التخلص منه فحسب بل كان ينظر إليه باعتباره إنساناً يمكن أن يستيقظ ضميره ويعود إلى رشده.

وموقف الحر خير شاهد على ذلك؛ فقد انتهى به الأمر إلى الانتقال من صف المواجهة إلى صف الإمام الحسين (عليه السلام).

وهنا نتعلم أن الإنسان الرسالي لا يغلق أبواب العودة أمام الآخرين.

خامساً

إنسانيته ليست ضعفاً وإنما قوة أخلاقية

قد يتصور البعض أن الرحمة تعني الضعف وأن التسامح يعني التنازل عن المبادئ وأن الإنسانية تعني عدم مواجهة الظلم.

ولكن الإمام الحسين (عليه السلام) قدّم لنا نموذجاً مختلفاً تماماً.

فهو في الوقت الذي كان فيه أرحم الناس بالضعفاء كان أشد الناس رفضاً للظلم.

وفي الوقت الذي كان فيه متسامحاً مع الأشخاص لم يكن متساهلاً مع المبادئ.

وهذه نقطة جوهرية ينبغي أن نفهمها:

الإمام الحسين (عليه السلام) جمع بين الرحمة والحزم وبين العطف والإباء وبين التسامح والثبات على الحق.

فلم تمنعه إنسانيته من مواجهة الظلم ولم تمنعه شجاعته من ممارسة الرحمة.

وهذا هو التوازن الذي تحتاج إليه المجتمعات الإنسانية.

سادساً

إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) مدرسة لنا

إن الحديث عن إنسانية الإمام الحسين (عليه السلام) لا ينبغي أن يبقى مجرد حديث عاطفي نستمع إليه في المجالس وإنما ينبغي أن يتحول إلى سلوك نمارسه في حياتنا.

فإذا كنا حسينيين فعلينا أن نتعلم منه:

١. أن نكون رحماء مع الفقراء والمحتاجين.
٢. أن نحفظ كرامة الإنسان مهما كان موقعه الاجتماعي.
٣. ألا نجعل الخلاف سبباً للظلم والاعتداء.
٤. أن نساعد المحتاج حتى لو كان مختلفاً معنا.
٥. أن نرفض الظلم دون أن نتخلى عن أخلاقنا.
٦. أن نفتح أبواب العودة والتوبة أمام المخطئين.

٧. أن نجعل الرحمة أساساً في تعاملنا مع الأسرة والأطفال والمجتمع.

فليس من الصحيح أن نبكي على عطش الامام الحسين (عليه السلام) ثم لا نشعر بعطش إنسان محتاج!
وليس من الصحيح أن نتألم لمظلومية الامام الحسين (عليه السلام) ثم نظلم الآخرين في حياتنا!
وليس من الصحيح أن نرفع شعار يا حسين ثم نبتعد عن أخلاق الامام الحسين (عليه السلام)!

إن الانتماء الحقيقي للإمام الحسين (عليه السلام) لا يكون بالشعارات وحدها وإنما يكون بمدى اقترابنا من أخلاقه ومبادئه.

النتيجة

إن الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن عظيماً في ميدان المعركة فحسب بل كان عظيماً في ميدان الإنسانية أيضاً.

لقد علّمنا أن الرحمة لا تسقط في زمن الحرب وأن الأخلاق لا تتغير في زمن المحنة وأن الإنسان المؤمن بمبادئه لا يسمح للظروف أن تسلبه إنسانيته.

لقد استشهد الامام الحسين (عليه السلام) مظلوماً ولكنه لم يسمح للظلم أن يحوّله إلى ظالم وقُتل عطشاناً ولكنه لم يتخلّ عن قيم الرحمة والإحسان.

وهنا تكمن عظمة المدرسة الحسينية:

أن تكون قوياً دون أن تكون قاسياً وأن تكون حازماً دون أن تكون ظالماً وأن تختلف مع الآخرين دون أن تفقد إنسانيتك تجاههم.

فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يعلّمنا كيف ننتصر في المعركة فحسب بل علّمنا كيف ننتصر على قسوة أنفسنا وكيف نحافظ على إنسانيتنا مهما اشتدت بنا المحن.

فما أحوج عالمنا اليوم إلى إنسانية الامام الحسين (عليه السلام)!